« الرقص فوق السحاب الأسود»

عندما تقارع كؤوس الليل كؤوس النهار أكون قد قطعت كل صلة بىّ، كجثة هامدة أرتمى فى نعشى الفاخر ، أُساق مترنحاً إلى وسادتى وفراشى الوثير ، يدُ ما تسحب علىَّ ملاءة حريرية فى زرقة السماء الصافية ، ثم تمطرنى بأحلام كئيبة تخنقنى ، وتطاردنى ، كطائر ذبيح فقد جناحية تحملنى السحب السوداء إلى عالم مجهول ، أتهاوى إلى قاع بلاقرار ، أصرخ وأقاوم دون جدوى ، أهب مفزوعاً وغارقاً فى العرق ، أنفاسى ثقيلة كجبل أدفعها دفعاً من أعماقى ، أصرُّ الألم فى ثنايا قلبى ، أخفية بعيداً فى الأعماق ، أهيل عليه كل قدراتى على النسيان .

مثقل أنا بهذا الجسد العملاق ، فى حُلة فاخرة أرتمى مثل دمية خشبية ، أقرر ككل ليلة أن أقود سيارتى ذات المقابض الذهبية بنفسى ، يأتينى صوته الحانى المهذب من وراء خصلات شعر شاربه الزهراء ، أجيل النظر فى حنايا وجهه المريح ، وأسمع كلماته التى تنبعث كرغوات صورة قديمة مترقرقة على صفحة نهر متلاشٍ :

- لست على مايرام فيما يبدو يابنى ، دع لىّ القيادة الليلة .

نفثات الدخان المتصاعدة ، وومضة مرتعشة تخط قوساً يتلاشى فى ضوء السيارة الخافت ، ألوك مؤخرتها بين شفتي، وكأنما جثمت فوق صدر كلماتى بأنفاسها الساخنة ، اكتفيت بابتسامة باهتة وإيماءة برأسى ، ثم انطلقت أغرق بسيارتى فى أعماق الليل الداجى الشديد الوحشة ، وهو إلى يمينى ويسارى وفى أعماقى قد عقد يديه عند صدره فرقاً من نزق السرعة الجنونية .

كنت طوال تلك الأمسية الساهرة أسقيهن قبلاتى ، وأتبادل نفسى بين أحضانهن الدافئة ، ألقى برأسى إلى الوراء ثم أطوحه إلى الأمام ، وفجأة يزداد لهيب الإيقاع مع خطواتى المتراقصة فوق أحلامى ، السحاب الأسود ، كابوسى المزعج ، أرتعب ، تضمنى قبضة الخوف ، أرتمى فى عينيها الساحرتين ، تعاود خطواتى الرتابة ، وتسكننى هدأة غريبة ، تمد شفتيها الحمراوين كالنبيذ المعتق مع خيط هواء دافئ فى أسفل ذقنى ، تلفنا غلالة من ضوء القاعة اللبنى ، ثم تستيم الموسيقى الصاخبة مع خطواتنا الرتيبة شيئاً فشيئاً ، تصبح حالمة ، أجيبها وأنا مغمض العينين ، ألتقط أنفاسى ، وأستعيد سكينتى وهدوئى :

- هاأنذا أمامك ، لست بعيداً عنك كما تخالين ، وتذكرى أنك ترفضين تلبية دعوتى دائماً .

همست وأناملها الرقيقة تعبث برقة فى خصلات شعر رأسى السوداء المدهونة بمادة البرلانتين التى تجعله لامعاً للغاية :

- صدقنى أنت معى بجسدك فقط .

صمتت برهة ، ثم أردفت قائلة ومصارع الكلمات على أطراف لسانها القرمزى تترآى :

- إننى جد تعسة الحال،أنت أكثرت من وعودك،وأنا أصدق.

تنفست فى أذنها ، قلت وشذى عطرها الفواح يسكرنى ويذيبنى سحراً وشوقاً ، أزداد تلهباً فوق تلهبٍ ، ضممتها بقوة إلى صدرى المفتول :

- ألاتعجبك هذه القوة الفحولية ، ألاتلبين دعوتى ؟! ، التى تتوق إليها كل صويحباتك هنا .

دفعتنى إلى الوراء قليلاً بيديها ، قالت وقد خالجت نظراتها حدة لامعة :

- أنت تكاد تقتلنى .

- سوف تتحملين كلما غاصت أعماقك فى أعماقى المكتظة بالذهب والألماس .

- أنت تهيننى

قلت بسخرية شديدة آلمتها :

- وماذا تنتظر ساقطة مثلك ، وفى مكان مثل هذا ؟!.

قالت وهى تصفعنى بعجزِها الجلى ، فى الطريق إلى صفحة وجهى كانت يدها مشلولة تماماً وكأن شراييها قد تصلبت :

- أيها الجبان الوقح .

دفعت يدها بقوة إلى جانب ساقها :

- سوف أبتاعك من سوق النخاسين لو أردت ذلك .

عن طريقى أزحتها بوحشية ، وقلت متهكماً :

- هه جاء دورك أيتها الغانية الشريفة .

أخذت تنهض من فوق ظلها المفترش أرضية القاعة ، وتلملم أشلاءها العارية ، تصحبها نظرات مشفقة تزدرينى ، كانت رأسى تدور بوجهه المتأزم ، ونظرات العتاب الحارقة ، لا أدرى كيف أسقطت الصفعة الوهنانة مثل هذا الجسد العملاق ، احتملنى فوق ظهره المحنى ومضى ، ويالهوانى النظرات الساقطة تكاد تلقى بنزيناً مشتعلاً فى سبيلى .

- غاضب أنا منك .

قلتها وأنا أستدير ملتفتاً بعصبية من أمام المرآة ذات الحواف الذهبية المطعمة بفصوص من الأحجار الكريمة :

- نعم كم أنا غاضب منك ، كل ليلة تصحبنى إلى هوان جديد، وإلى مصيبة أشد مرارة من سابقتها ، ماذا تريد أن تفعل بىّ بالضبط .

رمقتنى دهشة وهى تقدم لىّ فنجان القهوة باللبن ، ساخنة إلى حد ما ولكن ليس كما ينبغى وأحب ، أمسكتها بيدى من أذنها ، أسمعتها رشفاتى وهمساتى ، لحظات وفرغ الحساء ، بعد مقاومة محسوبة وبمقابل زهيد ، همست ساخراً فى نفسى منها :

- إنه أغلى فنجان قهوة فى الوجود تقدمه شغالة لسيدها .

لحظات وأرتعش كالمحموم ، أتفصد دماً ، وكأنما انسلخ من جلدى ، أصرخ فى أعمق أعماقه حتى يسمعنى :

- أنت جد تفعل أشياءً مخجلة كما لوكنت تقضى حاجتك عارياً أمام الناس .

صفعنى بيد الصمت الرهيبة ، تكورت عيناه بصورة إبليسية مرعبة ، يأمرنى :

- هيا ، لاتتمرد ، سوف أمضى بك ككل مساءٍ إلى ذلك الماخور العفن .

- ولكننى قررت ألا أذهب مرة أخرى إلى هناك .

- اخرس .

أكاد أسمعه وأنا رابض فى السيارة ، الحيرة تقتلنى ، ويتجاذبنى من كل أطرافى القلق والتردد الشديد ، سألته وأنا أقاوم المقود الذى يمسك به بعصبية مفرطة :

- ألا تعرف لنا مكاناً آخر ؟.

قال يفاجئنى بحضوره الأثيرى وهو يخفى ابتسامة ما وراء شاربه الكث الأبيض كندف الثلج :

- لا أعتقد أننى أعرف شيئاً يرضيك ياسيدى ، ألا تبقى معنا هنا فالأمسية الليلة قمرية رائعة .

ثم راح يرنو بناظريه بعيداً وراء الأفق الصافى ، يستقى روعة جمال البدر الفضى فى محياه المتقادم .

تتزلزل بىّ فجأة الرغبة فى الخلاص ، كانت كالومضة المتألقة فى الأفق البعيد ، لاتطولها يداى ، تختفى شيئاً فشيئاً ، أقرر بعصبية وضيق شديدين :

- سأقود سيارتى بنفسى ، لا ، بل تعال أنت ألست سائقى من زمن جدى القديم ، ألست خادمى المطيع كالكلب .

اكتفى بنظرة عتاب باطنة ، تحولت ثورة عندى ، دفعت رأسه بكعب حذائى ، ترنحت بنا السيارة ترنحاً مثيراً فى عرض الطريق وأنا أجيبه :

- نعم أيها الغبى إلى أقذر مكان فى الوجود ، ثم إيِّاك أن تنظر لى فى المرآة هكذا ، حطمها أو أحطم رأسك اللعين .

أومأ برأسه مستسلماً لطلبى ، أسمع صوت دمعاته يتحدرن من عينيه فى عيني ، أغلقهما وأغمغم بكلمات متقطعة :

- عندما ينتشر السحاب الأسود بعد الكأس الأولى سوف أنسى كل شئ ، نفسى ، وأنت أيضاً أيها الزومبى العجوز .

قبل أن تفلت من قبضة يدى جذبتها بشدة :

- من تظنين نفسك ، لا أصدق أن شرائف النساء يمكن أن يتواجدن فى مثل هذا المكان البغيض .

- قد أكون فى المكان الخطأ حقاً ، ولكن من يدرى فربما أكون مبعوثة العناية الإلهية إليك يا .....

قاطعتها بحدة :

«أريد الإجابة فقط على سؤالى لا فلسفته ، لِمَ ترفضين عرضى إذن ؟!.»

- نعم أرفضه بكل مافيه من إغراء وتهديد لأننى لست كما تظن ، إننى أحبك حقاً ، أنت وعدتنى كثيراً ، ولولا أننى ساذجة أصدق كل شئ.....

قاطعت نفسها بنظرة آسية وتنهيدة ألم ساخنة ، ثم أردفت قائلة بلوعة شديدة :

- لما كنت فى هذا المكان القذر الآن .

- للمرة الألف أكرر عرضى ، رباه أى امرأة أنتِ ، سلى كل زميلاتك ماذا وجدن عندى .....

- إلاى .

حاولت عاجزة أن تنفلت من قبضة يدى الطاغية ، قالت فى شجن :

- عرضك يعنى أنك تشترى ثم تبيع .

- فارغة هذه الزجاجة مثل رأسك .

جاءنى النادل الأبله على عجل وهو يحمل زجاجة النبيذ الذهبية ، قلت لها محاولاً تليين نبرتى هذه المرة قدر الإمكان :

- اجلسى ياقطيطتى الساحرة ، ربما بعد هذه الكأس المنعشة تقبلين .

أجلستها نظراتى التى رسمتُها متوسلة ، قلت فى تحدٍ بادٍ ولكن بصوت رقيق :

- ألاتعلمين أننى أنال كل شئ جميل تمتد إليه عيناي .

- هيه ، عيناك .

- حمراوان مثل شقائق النعمان ، أعرف .

- بل ساحرتان فى لون عيني تقريباً ، أليست صدفة غريبة حقاً ، الرمادى لون نادر للعيون .

قلت مستخفاً بكلامها ، وقد رحت أصب من رأس الزجاجة فى فوهة الكأس المتسعة صباً جنونياً :

- لا أرى أى تشابه بيننا ، وأقصى مابيننا من خلاف يكمن فى رغبتينا ، وشتان مابينهما من فارق .

- تذكر كم كنت لطيفاً معى فى البداية ، كن صادقاً مع نفسك ولاتخدعها ، لماذا تفكر فى كيفية للخلاص من واقع ، وتعجبك أوهام البداية الحيوانية ، حبيبى ، أنا أود أن أمنع هذا الفراق إلى الأبد .

شردت بناظريها بعيداً وهى تنبس بصوت دافئ عذب :

- فكر فىّ بطريقتى أنا لابطريقتك أنت .

كنت أشعر أن غمامة دكناء قد حطت فوق رأسى مثل الداهية، قلت لها وقد نفد صبرى ، وبدت الكأس تتحطم بين أصابعى المرصعة بالجواهر والألماس :

- رغبة واحدة ونختلف !؟.

كانت الكأس بعد الخامسة باثنتين أو ألف لا أدرى ، طوحت به بعيداً على الرؤوس يتحطم ، لايهم ، صرخت فيها وقد اكتسحها الخوف التام من هيئتى الشيطانية :

- بل الآن ، وبرغبتى لابرغبتك ، أنتِ ساحرة شريرة تلبسين رغبتك ثوب قديسة بتول ، ولكن هيهات وألف هيهات .

تقدمت منها ، رحت بيدي اليمنى واليسرى معاً أطوق جيدها الأتلع ، أخذت فرجة الطوق تتسع شيئاً فشيئاً عند النهدين ، ثم اختنقت عند خصرها الدقيق ، نزعتُ عنوة عن إهابها الناصع قطعة قماش صغيرة من فستانها الوردى الساخن ، سترت مسرعة بكلتا يديها لاشئ ! .

كانت يداها كلتاهما فى قبضة يمناى ، تسمر بها العجز تماماً فى وسط حلبة الرقص ، بدت معقودة اللسان ، مبهورة العينين والأنفاس ، هتفت صارخاً ، الكل كان منتبهاً وملجماً بالدهشة ، والنظرات مصوبة إلى أعلى نقطة ممكنة فى سماء القاعة ، حيث كُنتُ أفرك القطعة القماش بين أصابع يسراى :

- سوف أبتاع منكم هذه الخرقة البالية بأى ثمن .

تحرك رجل خبيث الهيئة نحوى ، وهو يفتح فمه عن آخره فى دهشة مفتعلة وقال :

- سيدى إن خمرنا ليس مغشوشاً إلى هذه الدرجة ، فهل أصابتك جُنَّة ؟ .

- بل أتحدث إليكم من عقل رأسى المتزن مباشرة ، فهل تبيعها لىّ أنت شخصياً وزد إن شئت إلى ماتشاء.

- هل أنت جاد !!؟ .

- ومتى رأيتنى أهزل أيها السمج .

أطرق برأسه مغرقاً فى التفكير ، فيما كانت نظراته الحيرى تتردد من تحت لتحت بينى وبينها ، البائسة كانت عاجزة تماماً عن التخلص من قبضتى الرهيبة ، أخيراً نطق بصوت مبحوح وهو يتأمل حقارة المكان المتواضع من حوله ، ثم نكس رأسه قائلاً وهو يشير إشارة خفية لحراس الملهى المحدقين بىّ من كل ناحية كى ينسحبوا إلى الخارج فى صمت :

- لابأس .

دوت صرختها الرهيبة فى أنحاء الصالة الغارقة فى الصمت العبثى ، قلت دون أن تهتز شعرة واحدة فى مفرق رأسى :

- بل أريد أن أسمع الموافقة منكم جميعاً .

ضجت الساحة بالأصوات الثملة ضجيجاً هز جنبات المكان، ضحكت ضحكة مجلجلة ، أمرتهم صارخاً ومتأهباً لعملٍ ما :

- غلقوا كل الأبواب إذن،الزموا الصمت،وصفقوا إن شئتم .

دفعتها أرضاً ، تقدمت نحوها ببطء كالثور الهائج ، ورغبة أخرى تطغى على كل ماسواها بداخلى ، كانت عيناي تطقان شرراً فظيعاً ، وتخفيان كل معالم الإنسانية فيهما ، صرخت فى وجهها فيهم :

- أفسحوا الطريق قلت ، عند الجدران المتساقطة التصقوا، ولامانع من أن تلتهمنا أعينكم الخبيثة .

كفأر مذعور نهضت ، راحت تتراجع القهقرى ، وتتوارى وراء حلقات الهواء الفارغة ، وذراعيها البضين ، وتتلفت كالمجنونة باحثة عن مفر ، وربما عن أى شئ حاد توقفنى به أو تقتلنى به !، وتزيح خصلات شعرها الذهبية المصبوغة عن عينيها الرماديتين الفزعتين، وشفتيها المرتعشتين اللتين لم تتوقفا عن الاستغاثة والصراخ لحظة واحدة .

قلت متحدياً لفريستى :

- لامناضد ولازجاجات فارغة ، ولامخلوق يمنعنى عنك الآن، هناك من يستطيع أن يشترى صمت العالم ليثير الجلبة التى يحبها، ويرقص الرقصة التى تعجبه وحده .

صرخت بعلو حسها مستنجدة ، كانت تصطدم بالأشياء من ورائها ومن حولها :

- لا ، لا ابعد يديك عنى أيها الحيوان الدنئ .

بين يدي كانت تتملص منى ثم ترتد إلىّ فى دائرة مغلقة رسمتها بذراعى حول خصرها المرمرى ، كانت لحظة تكاد تتصب لها الجدران عرقاً ، عثرت قدمها اليسرى عند الدرجة الأولى من درجات مسرح الصالة ، اختلت الأخرى ، هوت وقد تمزق الفستان تماماً ، قلت وأنا أسحبها من يدها ورجلها إلى أعلاه :

- حسناً ، ليتم العرض فوق خشبة المسرح .

أردفت بعد قليل قائلاً بنبرة يشوبها استهزاء ثم غرور ، فيما الحضور يتغارقون فى الصمت والقلق الحذر :

- لست أدرى علام تقاوم امرأة مثلك رجل مثلى ! .

خارت قواها تماماً ، كانت عريانة ، مسجاة أمامى كجثة هامدة تتنفس الموت ، وتراقبنى بعينين كليلتين غائصتين فى ظلام المجهول، فجأة أخذت أمطر الساحة بأوراقى الكثيرة ، مختلف ألوانها ، والسكارى يتهاوون ، أرى من هم على شاكلتهم فى كل مكان أحط فيه برجلي ، يلزمون الصمت تماماً حيال الكثير من الإجراءات الحياتية الخاطئة ، أصرخ بصوت عال بدا وكأنه ليس لىّ :

- عليكم اللعنة ، لاشئ يستعصى فى هذه الحياة على الشراء، ولتنهار الأبراج العالية ، ولتتلوث المزروعات ، ولترتفع الأسعار إلى حد الجنون والجشع ، ولتعمى الأبصار ولتخرس الأفواه والضمائر إلى الأبد ، ولتذهب كل القضايا الإنسانية الكبرى إلى الجحيم .

كنت النقيض لحظتها ، أتكلم كثورى ، وأتنازل كثور عن ملابسى ورابطة عنقى ، وكانت الأنفاس الساخنة تقرع بعضها بعضاً فى ضيق مكتوم ، وضحكات ثملة خافتة تأتينى شاردة من هنا وهناك كأضواء الساحة الحمراء المقبضة .

بدأت أظلم فوقها ، أتضخم فى عينيها شيئاً فشيئاً ، أصبحت كل شئ فيهما ، كانت تقاوم ميتة ، فجأة سقط دوار سخيف فوق رأسى ، آلمنى بشدة ، صرخت متأوهاً ثم فيه وأنا أركل الهواء بذراعى وقدمي المتطايرين فى الهواء .

- أنزلنى أيها الحيوان الصعلوك .

كانوا يضحكون منى ، ويلوحون لىّ وكأنما عادت إليهم الروح من جديد ، راحوا يمشون فى أثر رأسى المتدلى فوق ظهره المقوس ، أخذت أبصق فى وجوههم ، وأقاوم بيدي الخائرتين الخروج متشبثاً بحافتي البوابة الكبيرة ، ركلته فى بطنه بركبتي، صرختُ متألماً ، استدرت برأسى الساقطة نحوه وقد توشحنى الذهول والهوان :

- لقد جعلتنى أضحوكة لهم ، ضيعتنى ، هزمتنى .

ألقى بىّ فى المقعد الخلفى للسيارة ثم انطلق بنا كالريح ، كانت شفتاه تصدران مصمصة حزن بين الفينة والأخرى ، من وراء شعيرات مبيضة تقاطرت عليها الدموع لاح لىّ فى المرآة أمامه ، قال بعد عناء وهو يغالب حشرجة فى أحباله الصوتية ، ويمسح بظهر يده جانب وجهه الأسمرالمتغضن الذى تلاشى فجأة كالسراب:

- سوف أذهب بك إلى مكان كم كنت أتمنى أن آخذك إليه بنفسى منذ زمن سحيق يا .....!! .

ثمة أشياء تتطاير وتتهاوى ، وصرخة مدوية يتردد صداها فى أحناء الجبال العالية التى تشق بهامها جموع السحب السوداء،

البعـض يقـول إنـه رد فعـل طبيعـى لمـن يريـد أن يُكفِّـر عـن خطـأٍ مـا.....!!

●●●